Miserliness between the "misers" of Al-Jahiz and the "stingy" of Molière

الباحث : د. إدريس عتيه.
الجامعة القاسمية ـ الشارقة ـ دولة الإمارات العربية المتحدةDr. Idriss atia
المؤلف المرسل : د. إدريس عتيه الإيميل :
idrissatih@yahoo.fr

ملخص:
يمكن القول إن الفن أروع ما يكون عندما تجتمع فيه الجمالية النفسية والصدق وقوة التصوير والمعالجة، ولاسيما عندما يكون الأمر ذا صلة ببعض أخطر الظواهر الاجتماعية والعقد النفسية وفي مرحلة متميزة من التطور الاجتماعي والاقتصادي؛ مثل حالة المجتمع العباسي في الأوساط الحضرية لفئات المثقفين والولاة والوزراء من ذوي الاكتناز والحرص المالي، وحالة المجتمع الفرنسي في وسط الطبقة التجارية للبورجوازية الوسطى الناشئة وخاصة فئة المرابين. ربما كانت المقاربات الأدبية أكثر إمتاعا وأقل قسوة وصرامة في معالجة هذه الظاهرة؛ سواء في بعدها الفردي النفسي الأخص أو في تجلياتها وآثارها الاجتماعية الأعم، ويعتبر كتاب"البخلاء" للجاحظ ومسرحية البخيل(L'Avare) لموليير من أبرز وأهم الأعمال الأدبية حول هذه الظاهرة رغم البعد بين العملين.
كلمات مفتاحية: البخلاء؛ الجاحظ؛ البخيل؛ موليير؛الاختلاف.

Abstract:
It can be said that art is the most wonderful thing when psychological aesthetics, and the power of photography and treatment combine, especially when interrelated to some of the most dangerous social phenomena; Such as the state of the Abbasid society in urban circles, and the state of French society in the midst of the commercial, especially the usurers category, Literary approaches may have been more interesting and less harsh in dealing with this phenomenon; Al-Jahiz's book "The Miser" and Moliere 'splay "L'Avare" are considered among the most important literary works on this phenomenon, despite the distance between the two works

Keywords: miserliness; big eye miser; Al-Jahiz's; Moliere; distance.

1. توطئة:

إن أعظم الأعمال الفنية والأدبية هي تلك التي صورت جوانب الحياة كاملة وحنايا النفس البشرية بكل تعقيداتها، واستشرفت أشواق الإنسان في كل تجلياتها المادية والروحية والوجدانية. فنجد الأعمال الأدبية النثرية في العصر العباسي مثل أعمال ابن المقفع والجاحظ وهي الأعمال التي اهتمت على وجه الخصوص بسبر الحياة الثقافية والاجتماعية الماضية والمعاصرة (في عصر بلغت فيه الحضارة الإسلامية العباسية أوج اتساعها وضمت أمما مختلفة وأقطارا متباعدة امتدت من الصين شرقا إلى المغرب الأقصى وغربا ومن وراء بلاد القوقاز إلى الأدغال الإفريقية[1].

ثم جاءت أعمال الآداب الغربية الحديثة كثيرة ومتنوعة الطيف وفي الأدب الفرنسي الذي يهمنا هنا نجد أعمال موليير .

إن إشكالية التعامل مع المال -ومسألة الشح والبخل- التي تعتبر أحد أهم مظاهر السلوك البشري في هذا المنحى ظلت موضع مقاربات مختلفة على أسس فلسفية وتصورات سوسيولوجية واقتصادية مختلفة، تتراوح بين الإسراف المفرط والشح والبخل المقتر، لتتوسطها مفاهيم الإنفاق والاقتصاد.

لعل المقاربات الأدبية كانت أرحب باعا وأكثر إمتاعا وأقل قسوة وصرامة في معالجة هذه الظاهرة سواء في بعدها الفردي النفسي الأخص أو في تجلياتها وآثارها الاجتماعية الأعم. ويعتبر كتاب "البخلاء" للجاحظ ومسرحية البخيل(L'Avare) لموليير من أبرز وأهم الأعمال الأدبية حول هذه الظاهرة – على الرغم من البعد بين العملين واختلافهما.

ويسعى هذا البحث بعد عرض مقاربة كل من المؤلفين لظاهرة البخل وكيف تجلت في "البخلاء" و"البخيل" وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي أبعاد تجليات ظاهرة البخل في هذين العملين الأدبيين؟ ثم ما هي الخصائص الفنية التي سلكها المؤلفان لمقاربة ظاهرة البخل تتبعا وتصويرا وتحليلا؟ وما هي المقاصد والأبعاد الأخلاقية التي طبعت العملين وإلى أي حد يمكن اعتبارهما ذوي نزعة أدبية جمالية، مستبطنة لمنحى تعليمي أخلاقي في نقد البخل والتشهير بالبخلاء؟ وأخيرا، يسعى البحث بعد الإجابة قدر المستطاع على

تلك الأسئلة، إلى استخلاص وتجلية بعض أوجه الاختلاف بين العملين سواء من حيث القالب الفني أو مصادر الاستلهام أو الاستحياء، ثم إبراز بعض أوجه التشابه والتلاقي المميزة لهذين الكاتبين ومقاربتهما لظاهرة البخل سواء من حيث الأساليب وتقنيات التعبير أو من حيث الوجهة أو الرؤية الموجهة للعمل الأدبي مزاوجة بين الإمتاع الفني والبعد الأخلاقي.

2. نبذة عن حياة المؤلفين

1.2 الجاحظ (159 -255 هـ):

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني الجاحظ ولد بالبصرة سنة تسع وخمسين ومائة هجرية (159هـ) وتوفي سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية (255 هـ)، وهو ما يشير إلى أنه عاش زهاء مائة سنة؛ حيث عمّر عمرا مديدا أسهم في تحصيله معارف وتجارب جمة كان لها كبير الإسهام في تكوينه العلمي وفي ثراء إنتاجه الأدبي والمعرفي وعمقه واتساعه كما يتضح من كثرة وتنوع مجالات المعرفة التي عرض لها في مؤلفاته ومنها كتاب البخلاء[2].

أخذ الجاحظ العلم عن خطباء العرب بالمربد وأجلاء علماء عصره خاصة بالبصرة التي كانت مركز إشعاع واستقطاب معرفي وعلمي في جميع الفنون حينئذ؛ ثم إنه كان مولعا بالمطالعة واقتناء الكتب مما زاد في تحصيله. ألم الجاحظ كذلك باليونانية بواسطة علماء الكلام في عصره كحسين بن إسحاق وسلمون وأمثالها وبالثقافية الفارسية والهندية من كتب المقفع، ووسع معارفه بالعربية من اتصاله بالرواية ومشافهة بعض علماء عصره كأبي عبيدة .

ترك الجاحظ عددا ضخما من المؤلفات في مختلف فنون المعرفة والأدب من أهمها: "الحيوان" "والبيان والتبيين" "والبخلاء" و"التاج"[3].

كان لأثار وأعمال الجاحظ وأسلوبه الأدبي الرصين والمتفنن أكبر التأثير على أعمال معاصريه ولاحقيه[4].

2.2 موليير (1622-1673 م)

ولد "جان بابتست بوكلين" المعروف ب"موليير" (Molière) في باريس عام 1622م بالقرب من مكان يدعى (بون نيف) كان ملتقى المهرجين والمشعوذين والمطربين!! كان جده لأمه المولع بالتردد على المسرح يصطحب "جان" معه وهو ما زال في الحادية عشرة من عمره.في حين كان جده لأبيه

يملك متجراً في ساحة سوق (سان جرمان) (Saint-Germain) حيث كانت تقام العروض المسرحية الشعبية.

من تلك السن المبكرة، ومن خلال هذا الجو والنشأة، بدأ الصبي يتشبع بالروح الفنية لتبدأ ملامح الذكاء والتفوق تظهران عليه وهو يدرس في مدرسة (كليرمون) حيث يتجمع أبناء الطبقة النبيلة الذين غدا لهم شأن كبير فيما بعد في المجتمع كـ(برينييه الكاتب، وشابيل الشاعر، ودي بوربون) الذي قُدّر له أن يصبح "كونتي" وراعي الأدب، وحامي موليير ونصيره.

بعد مدرسة كليرمون، انتقل جان إلى مدرسة "جاسندي" الفيلسوف المتحرر والمرح،حيث تأثر فيما بعد بالدراسات الفلسفية التي انعكست على بعض أعماله المسرحية.. ولما كان والده يرغب في تأهيله للخدمة في بلاط الملك "لويس الثالث عشر" وجهه باتجاه كلية الحقوق بجامعة "أوليان" وفيها حصل جان على ليسانس المحاماة. إلا أنه لم يزاول هذه المهنة التي كان يرى فيها ما سماه (بالعدالة الملتوية). ولأن طموحه الذي كان يتطلع إلى عالم التمثيل دفعه إلى أن يصارح والده بأنه سيحترف التمثيل الهزلي.

3. الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لـ"البخلاء" و"البخيل"

يشكل كتاب البخلاء للجاحظ، ومسرحية البخيل لموليير معلمين من معالم الأدب العالمي حيث تعكسان لنا أنماط الحياة في كلا المجتمعين، وقد أخذت تتحول من البساطة إلى التعقيد، بعد أن ابتعدت عنها تلك السهولة التي كانت تطبعها وتميزها... ولقد كان للعامل الاقتصادي أهم مضطلع في ذلك التغيير، وحوّل الأذهان عن التفكير في جميع القيم باتجاه التركيز على القيمة المادية التي أخذت تطغى على ما سواها..

وإذا كان الجاحظ قد انتقى أكثر أشخاصه من تلك الطبقة التي تكالبت على المال، فإن موليير انتقى أنموذجه ليجسم شراهة الطبقة البرجوازية المرابية الجشعة... مضافاً إليها طبقة رجال الدين المستغلة التي راحت تنتزع اللقمة من أفواه الناس.

وهكذا، وفي مواجهة هذه الأوضاع، لم يكن غريبا أن تظهر أعمال أدبية أو فكرية تتصدى- من خلال الإبداع الفني والأدبي، سردا وتعليقا، أو في ثوب كوميدي ساخر- لهذه الظواهر؛ مشكلة بذلك معالجة من ذوي الأقلام بعض آثار

المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، في المجتمعين، وهو ما يمكن القول إن "بخلاء الجاحظ" و"بخيل" موليير قد اضطلعا به.

4. أبعاد وتجليات ظاهرة البخل بين "البخلاء والبخيل":

تمكّن القراءة المتأنية والاستقرائية –ولو نسبيا- من استخلاص بعض من أهم أبعاد وتجليات ظاهرة البخل كما صورها وحللها كل من الجاحظ في المجتمع العباسي في القرن 3 هـ وموليير في المجتمع الفرنسي في النصف الثاني من القرن 7 م.

ومن حيث الأبعاد، يبرز البعدان النفسي والاجتماعي للبخل من حيث هو سلوك فردي ما يلبث أن يسود وتمتد آثاره من الفرد إلى الجماعة، فيغدو ظاهرة أو ملمحا اجتماعيا. فكيف كانت مقاربة الجاحظ و موليير لهذه الظاهرة.

1.4 تجليات ظاهرة البخل:

يتخذ البخل في كل من "البخلاء" و"البخيل" مظاهر وتجليات عديدة، يمكن أن نشير إلى بعض من أهمها على النحو التالي:

2.4 البخل على النفس

ويورد له الجاحظ في كتابه نماذج كثيرة، نكتفي هنا من بينها بقصة ليلى الناعطية، يقول الجاحظ: "وأما ليلى الناعطية، صاحبة الغالية من الشيعة، فإنها ما زالت ترقع قميصا لها وتلبسه، حتى صارع القميص الرقاع، وذهب القميص الأول ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو، وذهب جميع الكساء. وسمعت قول الشاعر:

البس قميصك ما اهتديت لجيبه فإذا أضلك جيبه فاستبدل

فقالت: إني إذا لخرقاء. أنا – والله – أخوص الفتق، وفتق الفتق، وأرقع الخرق وخرق الخرق"[5] ولا يحتاج تقتير هذه البخيلة على نفسها وإهانتها لنفسها بلبسها الرقاع إلى تعليق!

3.4 البخل على العائلة والأصدقاء

ويبرز هذا المظهر من البخل أكثر في بخيل موليير، وهو يحول حياة عائلته ومحيطه الأقرب إلى جحيم لا يطاق، بحيث يحرم ابنه كليانت من الحصول على ما يكفيه من المال للزواج، بل ويسعى إلى تزويج ابنته أليس من

ثري متقدم في السن،وإلى تزويج ابنه كليانت من أرملة ثرية، في صفقة يضحى فيها بالأبعاد العاطفية والإنسانية لصالح المقصد الربحي الخالص[6]

4.4 البخل على المجتمع :

تتمثل تجليات البخل على المستوى الاجتماعي في الأثر الهدام الذي يخلفه الشح وسوء استغلال المال خاصة بكنزه أو استعماله في حاجة الغير من خلال المراباة أو الإقراض بشروط مشددة. ويمكن أن نلاحظ أن كلا من الجاحظ وموليير قد أولى لهذا المظهر من تجليات البخل الاجتماعية مكانة معتبرة.

يقول الجاحظ: " قال أبو الحسن المدائني: كان بالمدائن بائع تمر، وكان بخيلا وكان غلامه إذا دخل الحانوت، يحتال على سرقة التمر لأكله ، فربما احتبس (دخل الحانوت فغاب فيه) فاتهمه بأكل التمر، فسأله يوما فأنكر فدعا بقطنة بيضاء، ثم قال: امضغها، فمضغها، فلما أخرجها وجد فيها حلاوة وصفرة . قال: هذا دأبك كل يوم، وأنا لا أعلم، أخرج من دارى"[7].

في هذا النموذج يصور الجاحظ بخل صاحب العمل مع العامل. وعلينا أن نتأمله بدقة، لنقف من صورته الكاريكاتيرية على اهتمام الجاحظ بالعلاقة العادلة التي ينبغي أن تقوم بين هذين الطرفين، والتي يمكن للبخل أن يقضى عليها.

ويمكن الإشارة إلى أن الغلام – مهما أكل من التمر– فما المقدار الذي سيخسره صاحب الحانوت؟ ثم أغلب الظن أن الذي يدفع الغلام لسرقة التمر إنما هو الجوع. ولو كانت له في أجره كفاية لما أقدم على مثل هذا الفعل.

5. الخصائص الفنية لمقاربة ظاهرة البخل عند الجاحظ وموليير:

1.5. السخرية وروح المرح

يعتمد كل من الجاحظ وموليير السخرية والمرح والإضحاك وسيلة لتمرير رسالتهما الفنية والأخلاقية. ذلك أن هذه السخرية تؤدي وظيفة مزدوجة فهي تضفي طابعا من التسلية والترفيه وتخاطب الحاجة النفسية للمتلقي، وفي الوقت ذاته فهي تستخدم وسيلة لتصوير البخلاء والتشهير بهم ونقدهم دون الوقوع في الألفاظ النابية المبتذلة. يقول الجاحظ شارحا في مقدمة كتابه البخلاء مذهبه في أهمية "الضحك والإضحاك"، مستدلا بأنه ما دام البكاء مفيدا، فمن باب أحرى الضحك، يقول: "وأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع، ومحمود المغبة، إذا وافق

الموضع ولم يجاوز المقدار (...) وإذا كان البكاء (....) كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه (....)"[8].

ولا يكتفي الجاحظ في استخدامه أسلوب السخرية ونشره روح المرح واستثارة الضحك بما يسرده من حجج في مقدمة الكتاب أو تعليقات في ثناياه.

فمن الأمثلة على الحالة الأولى، يمكن أن نورد قصة الأسواري فقد أكل يوما على مائدة أمير، قدم إلى المدعوين "سمكة عجيبة، فائقة السمن، فجلط بطنها جلطة، فإذا هو يكتنز شحما، وكان قد غص بلقمة (...) وقد غرف من بطنها كل إنسان بلقمته غرفة. (...)، فلما خاف الإخفاق، وأشفق من الفوت، وكان أقربهم عيسى (الأمير)، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي، وانحدار العقاب، من غير أن يكون أكل عنده من قبل مرته. فقيل له: ويحك. استلبت لقمة الأمير من يده، وقد شحا لها فاه، من غير مؤانسة ولا ممازحة سالفة؟قال: لم يكن الأمر كذلك. وكذب من قال ذلك. ولكنا أهوينا أيدينا معا، فوقعت يدي في مقدم الشحمة، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معا، والشحم ملتبس بالأمعاء (...) فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي لاتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر"[9].

أما موليير فيستخلص القارئ المتمعن لمسرحيته "البخيل" ولبعض ما كتب من تعليقات وأعمال نقدية حولها جملة من الخصائص الفنية والأسلوبية يمكن إجمالا تصنيفها إلى طائفتين: خصائص فنية غالبة هي عماد العمل فنيا والتقنية الأساسية لصياغة وتقديم الرسالة أو المقصد المعنوي للعمل الفني وهي أساسا السخرية والحوار، وخصائص ثانوية تنتشر في ثنايا العمل وتشد من أزره الهيكلي وتضفى عليه قيمة جمالية مضافة، وذلك باستخدام الأساليب البيانية كالكناية[10].

2.5. السخرية والإضحاك :

يستعمل موليير السخرية الدرامية دعامة لموضوعاته، بل إن الهدف الرئيسي لموليير من مسرحية "البخيل" هو الإضحاك وذلك بتصويره طغيان البخل. ومن خلال السخرية والتشهير بهذا السلوك المرذول، وهكذا تؤدي السخرية وظيفة مزدوجة فهي تخلق المرح والمسرة لدى النظارة، وفي الوقت نفسه تنفر من البخل وأصحابه.

وتتجلى مظاهر استخدام السخرية في"بخيل" موليير في نمطين يمكن أن نسمي أحدهما "سخرية الألفاظ"، والآخر "سخرية الإشارات". فعلى المستوى الأول، نلاحظ أن خطاب البخيل أرباغون، بطل المسرحية، يمتاز بهوس بالمال والنقود، وتكرار مفرط للألفاظ الداخلة في هذا الحقل الدلالي حيث يركز معجم المفردات المستخدم على لسان البخيل على كل ما له علاقة بالمال والكسب والربح فتنشر فيه كلمات مثل: الربح، المال، السرقة، الأموال؛ كما نلاحظ تكرارا، فيما يشبه اللازمة المعنوية أو الشعرية، لألفاظ مثل "بلا مهر"، "صندوق"، "نقود"، مما يضفي على شخصية البخيل طابعا آليا مثيرا للضحك والاستهزاء[11].

3.5. الوصف الحسي والنفسي :

تبين دراسة كتاب "البخلاء" للجاحظ من حيث الخصائص الفنية والأسلوبية أن الرجل قد اعتمد كثيرا في تصويره لظاهرة البخل في جوانبها المتعددة في المجتمع العباسي، على جملة من الوسائل التعبيرية لعل أهمها-إضافة إلى الاسترسال اللفظي واعتماد الألفاظ السهلة –إذ يرى الدكتور طه الحاجري أنه "لعل أول هذه الصفات (الفنية) تجليا لقارئ الكتاب هو البراعة في الوصف والدقة في التصوير. ونحن نطلق كلمة الوصف نعني بها ما يشمل الوصف الحسي والوصف النفسي جميعا"[12].

ومن أمثلة ذلك تصوير الجاحظ لأحد بخلائه، علي الأسواري وهو يأكل. يقول الجاحظ على لسان الحارثي (...) إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر وسدر وانبهر، وتربد وجهه، وعصب، ولم يسمع، ولم يبصر..."[13].

6. المقصد الأخلاقي في "البخلاء" و"البخيل":

في جل الأعمال الفنية الرفيعة، ثمة تزاوج وتشابك وثيق بين البعد الجمالي الفني الخالص وبين الغاية والمقصد الأخلاقي أو التوجيهي مهما كان الثوب أو الشكل الذي يتخذه؛ بل إن سر الجودة أو الامتياز الفني الأدبي لمثل هذه الأعمال غالبا ما يكون مرده إلى نجاحها في تحقيق هذا الهدف المزدوج؛ بحيث لا يكون العمل الفني مجرد قيمة جمالية صرف بل كذلك دافعا لترقية الحياة وعلاج النفس البشرية.

من خلال قراءة متمعنة ومقارنة للعملين يمكن تلخيص مظاهر المقصد الأخلاقي في النقاط التالية:

1.6. نقد البخل أساسا فكريا:

يتضح البعد الأخلاقي والمقصد التعليمي التوجيهي في كل من "البخلاء" و"البخيل" في نقد البخل في أساسه ومنطلقه الفكري؛ وذلك بدحض أي حجة أو استدلال فكري أو مناورة سفسطية قد يتحذلق بها البخلاء إخفاء لعوار شحهم ومحاولة للمنافحة عن مذهبهم في البخل والتقتير.

وهنا، نجد الجاحظ يتفنن في النقد اللاذع للأسس الفكرية للبخل من خلال المحاورة والمحاجة الدامغة التي لا تبقي للخصم ذريعة أو حجة للبخل الذي كان يطبع فئات كثيرة في المجتمع العباسي.

وأول ما يبدأ به الجاحظ في تحطيم قواعد البخل في النفس البشرية هو البرهنة بحجج قاطعة وبيان مسترسل متأن على تهافت أي أساس منطقي أو عقلي للاستمساك بهذه الظاهرة بحيث يبدو البخل تصورا وسلوكا غير معقول بل غير مفيد لا للبخيل ولا لمجتمعه،بل سلوكا متناقضا وسخفا وخبالا.يقول الجاحظ في مقدمة كتاب البخلاء – على لسان محاوره، ملتمس تأليف الكتاب-: "... ولم سموا البخل إصلاحا والشح اقتصادا، ولم حاموا على المنع ونسبوه إلى الحزم، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع، ولم جعلوا الجود سرفا والأثرة جهلا (...)"[14].

إلى أن يقول: "وكيف وهو الذي يجمع له بين الكد وقلة المرزئة وبين السهو وخشونة المضجع، وبين طول الاغتراب وطول قلة الانتفاع (...) فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذبا لما ظهر من جهله ونقصانه. ولم جاز أن يبصر بعقله البعيد الغامض ويغبي عن القريب الجليل"[15].

2.6. خطاب البخلاء وخطاب الجاحظ المضاد

يقدم البخلاء صورة منحرفة للخطاب يجليها الجاحظ في مقدمة كتابه في ثنائية "العجيب" و"الجد والهزل". ذلك أن شخصيات الجاحظ من هؤلاء البخلاء يستخدمون حججا واستدلالات قياسية قوامها إخضاع الخطاب والقول إلى الإكراهات العملية المتناقضة: من قبيل تفادي الإنفاق من جهة، وتجنب الافتضاح ومحاولة حفظ ماء الوجه من جهة أخرى، والسعي إلى تسويغ البخل أو تسويقه على أنه اقتصاد وتدبير. وتكون نتيجة ذلك أن يخلق الكاتب بذلك تأثيرا مضحكا مثيرا للسخرية لا ينقطع من تصرفات هؤلاء البخلاء[16]. ومن الأمثلة التي

يسوغها الجاحظ على ذلك البخيل الذي يحرص على نعليه خشية أن يخلقا فما ذا يعمل؟ إنه يحملهما ما في يديه ليذهب إلى السوق حافيا[17].

ويتمثل خطاب البخلاء في محاولة استغلال البيان والبلاغة والاتكاء على علم الكلام والجدل وأصول العقيدة والدين- ليا لأعناقها وحرفا لها- قصد المحاجة والدفاع عن سلوكهم المشين الفاضح. يقول الجاحظ على لسان محاوره، متحدثا في أسلوب يجمع إلى المحاورة المحايدة إرسال التقريع والنقد اللاذع عرضا"فقلت: فبين لي ما الشيء الذي خبّل عقولهم وأفسد أذهانهم وأغشى تلك الأبصار ونقض ذلك الاعتدال، وما الشيء الذي له عاندوا الحق وخالفوا الأمم، وما هذا التركيب المتضاد والمزاج المتنافي، وما هذا الغباء الشديد الذي إلى جنبه فطنة عجيبة"[18].

في حين يبرز خطاب الجاحظ المضاد في نصح ظاهره الإرشاد وباطنه النقد الساخر بأن يقبل البخلاء طبيعتهم أو جبلتهم كما هي وألا يكلفوا أنفسهم الجمع بين حياة الشح والشظف والتقتير من جهة، والاشرئباب والتطلع إلى أن يكونوا من صفوة القوم وسراتهم وأن يحوزوا الفضل والكرم من جهة أخرى– بل عليهم أن يتواروا عن العالم يقول الجاحظ على لسان محاوره "وقلت: وليس عجبي ممن خلع عذاره في البخل وأبدى صفحته للذم ، ولم يرض من القول إلا بمقارعة الخصم ولا من الاحتجاج إلا بما رسم في الكتب (...) كعجبي ممن قد فطن لبخله وعرف إفراط شحه، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظن أن قد فطن له وعرف ما عنده، فموه شيئا لا يقبل التمويه ورقع خرقا لا يقبل الرقع. فلو أنه كما فطن لعيبه وفطن لمن فطن لعيبه (...) **لترك تكلف ما لا يستطيعه** ولربح الإنفاق على من يذمه ولما وضع على نفسه الرقباء ولا أحضر مائدته الشعراء، ولا خالط برد الآفاق ولا لابس الموكلين بالأخبار، ولاستراح من كد الكلفة **ودخل في غمار الأمة**"[19].

4.6. نقد البخل انحرافا نفسيا:

سعى الجاحظ ومولييرِ كلاهما إلى تصوير البخل من حيث هو آفة وانحراف نفسي يصيب الفرد في ذاته وبنيته النفسية فيتعامله مع المال، محولا له من وسيلة إلى غاية، فالبخل كما تعرفه الموسوعات المعجمية هو"حالة ذهنية تتمثل في عدم رغبة المرء في الانفصال عن أمواله وثرواته[20].

وهكذا، نجد الجاحظ في تصويره للبخل عند شخصيات "بخلائه"، بعد أن يستخدم ريشة فنية تمتح من الحوار والسرد الكثيف واختيار الألفاظ ونمط الاحتجاجات والذرائع التي ينطق بها بخلاؤه والأفعال التي ينسبها إليهم، ينتهي إلى حقيقة أن البخل سلوك غير سوي بل انحراف نفسي بيّن في تصور وتصرف الإنسان البخيل. إذ من المتواضع عليه في الذوق السليم والتصور والسلوك الخلقي المعروف لدى جميع الأمم أن المال إنما هو وسيلة لا غاية في ذاتها، وأن التعامل معه ينبغي أن يكون كغيره من الفضائل وسطا وقصدا بين طرفي الإسراف والتبذير[21]. يقول الجاحظ مشيرا إلى مظهر من مظاهر الانحراف الفكري والنفسي لدى البخلاء ".. ولم احتجوا- مع شدة عقولهم – لما أجمعت الأمة على تقبيحه ولم فخروا – مع اتساع معرفتهم- بما أطبقوا على تهجينه. وكيف يفطن عند الاعتلال له ويتغلغل عند الاحتجاج عنه، إلى الغايات البعيدة والمعاني اللطيفة، ولا يفطن لظاهر قبحه وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء أثره على أهله"[22].

كذلك يصور موليير بعض تجليات أثر البخل على نفسية البخيل في الهوس الأناني والجنوني (passion égoïste et irraisonnée)[23] الذي تتكشف عنه شخصية بطل المسرحية "أرباغون"؛ ذلك أن هذا الهوس الجنوني بالمال يؤدي به إلى فقدان الارتباط بالحياة وبالآخرين بانعزاله وانغلاقه على ذاته وتعلقه بالمال فقط. وهو إذ يدفن نقوده في التراب حرصا يصبح هو نفسه دفينا نفسيا، إنه يصبح ميتا-حيا في الوقت ذاته كما يتضح من قوله بعد شعوره بالحرمان من المال ونزوله إلى القبر "إنني أموت، أنا ميت؛ لقد دفنت"[24].

ويعتمد موليير في توصيفه لشخصية البخيل ونقده للبخل والانحراف النفسي الناتج عنه، على المبالغة في تصوير شح "البخيل" (أرباغون)؛ ويستخدم لذلك– كما أسلفنا- ثنائية "سخرية الألفاظ" و"سخرية الإشارة".

ففي الفصل الأول من المسرحية وبعد حوار طويل يدور بين الاثنين يتهم فيه أرباغون لافليش بأنه جاسوس يمكن أن يذيع أخبار ماله المكنوز، يهم بصفعه طالباً منه الخروج ثم يصرخ به:

- أرباغون: مكانك!.. لا ترحل...(مقترباً منه).. ألم تسلبني شيئاً؟..(...).
- أرباغون: اقترب مني لأرى.. **هات يديك....**(...).
- أرباغون: **والأخريين؟** (ظاناً أنه سرق بيدين أخريين).
- أرباغون: (مشيراً إلى سراويل لافليش)، هذه السراويل الواسعة تصلح لإخفاء المسروقات، وأتمنى لو يشنق بعضهم من أجلها[25].

ففي هذا المقطع، نجد كيف يؤدي جنون البخيل وهوسه بالمال إلى انقطاعه عن عالم الحقيقة، حيث نجده-محاولا التأكد من أن لافليش لم يسرقه شيئا- يطلب منه أن يريه يديه، (وبعد رؤيتهما)، يطلب منه أن يريه يديه الأخريين! ثم يضحك عليه لافليش فيريه يديه من خلفه، ويقول: هاهما تان!!. وهدف موليير من ذلك، فضلا عن الإضحاك والمسرة، هو التنفير من البخل وفضح قبحه. فالوظيفة التعليمية والتربوية جلية في هذا المنحى[26].

أما استخدام "سخرية الإشارة" فوظيفته إظهار الطابع الآلي الفج والمضحك لشخصية البخيل: فأرباغون يثير الضحك من نفسه ويجعل الآخرين يستهزئون به باتخاذه إشارات لا تليق بمقامه الاجتماعي.

4.6. نقد البخل من حيث هو آفة تدمير اجتماعي:

يولي كل من الجاحظ وموليير عناية كبيرة لنقد آثار البخل المدمرة للحياة الاجتماعية. فمع أن عنوان المسرحية نفسه "البخيل" يشير إلى البخل الذي يعتبر (في الثقافة المسيحية أحد كبائر الذنوب (un péché capital)"، إلا أن موليير يعالج "المال" من جوانب عديدة تمثل الأثر المدمر لسوء استخدامه. فهناك مكانة المال في مصير الفتيات، خاصة عند زواجهن. فالبخيل، أرباغون، يعتبر الزواج قبل كل شيء صفقة تجارية. وهو شعور سائد ليس فقط لدى البخيل وإنما كذلك لدى الشخصيات الأخرى في المسرحية[27].

ويتمثل مظهر آخر من آثار آفة البخل الاجتماعية في علاقة المال بالسلطة. ذلك أن من يمتلك المال يمكن أن يفرض إرادته على نظرائه. والناس يستمعون إليه، ويرهبونه وإن لم يحترموه وبسبب ما يملكه من ثروة فإنه يجعل الآخرين رهائن لديه يدورون في فلكه. ولكنه يصبح عرضة للتملق والإطراء، فلا يحصل في النهاية إلا على صورة مشوهة عن ذاته وكينونته.[28].

أما الجاحظ فيمكن تبين بعض أساليب نقده للأثر الاجتماعي الهدام للبخل في الإشارة، في تعاليقه على بعض نماذج بخلائه – حين يصبح البخل سببا في حرمان الأب لابنه، ورب العمل لعامله، بل وأكثر من ذلك عند ما يؤدي البخل إلى تفكك الجماعة عاطفيا وعمليا، ولو كانت متصلة ومتقاربة جرما وحيزا مكانيا، كما يجلي ذلك نموذج بعض بخلاء خراسان، يقول الجاحظ-وقد قابل جماعة من أهل خراسان، حوالي خمسين رجلا في طريق الكوفة وهم حجاج: "فلم أر بين جميع الخمسين: رجلين يأكلان معا، وهم في ذلك متقاربون ويحدث

بعضهم بعضا" – قبل أن يعلق- "وهذا الذي رأيته من غريب ما يتفق للناس!!"[29].

إن كون هؤلاء القوم يسافرون زمنا طويلا معا فلا يؤاكل أحد من صاحبه بل يأكلون أشتاتا، شحا وبخلا يشير إلى أن البخل مدمر للأواصر الاجتماعية.

7. البخلاء والبخيل :

تسمح قراءة العملين إلى استجلاء جملة من أوجه الاختلاف والشبه، ويمكن إجمال أهمها في ما يلي:

1.7. أوجه الاختلاف :

- من حيث طبيعة القالب الفني: اعتماد القصص السردي لنوادر وقصص البخلاء مع بعض التعليقات من الجاحظ نفسه بالنسبة لكتاب البخلاء، وذلك في مقابل اعتماد موليير لقالب فني محدد هو المسرحية "الملهاة".
- من حيث المصادر المستلهمة: الاستقراء الاجتماعي والثقافي والاستنتاج العلمي والمعرفي أساسا بالنسبة للجاحظ في كتابه "البخلاء" مع بعض التأثر بأساليب المجادلة والمناظرة اليونانية التي وصلت إليه من خلال علم الكلام والانخراط في الفكر المعتزلي السائد حينئذ[30]مقابل استلهام موليير لأعمال فنية سابقة (حيث اعتمد في مسرحيته جزئيا على مصدر لاتيني هو قصة أو مسرحية ألولاريا (التي تعني القِدْر) لمؤلفها ابلوتيس،لكنه قام بإعادة خلق فني بحيث جاءت مسرحيته "البخيل"-على الرغم من اقتباس بعض المشاهد من هذا العمل السابق- عملا أدبيا أصيلا ووصفا صادقا للبخل كما يتجلى في الأوساط البورجوازية الفرنسية في القرن 17 م وما لذلك آثار مدمرة على الإنسان والأسرة، وذلك من خلال ملهاة (كوميديا) قوامها تصوير الشخصيات والأخلاق[31].
- تعدد مظاهر وتجليات بخلاء الجاحظ (البخل بإعطاء المال والنقود، البخل بالطعام والشراب، البخل والشح والشدة عند السلف والإقراض، الكدية والسؤال، اعتماد فلسفة اقتصاد "الشح" و"التقتير" عند المسجديين، طرف ونوادر شتى، بخل الحيوانات.....) في مقابل وحدة المسرحية والتركيز على البعد المالي النقدي للبخل عند بطل ملهاة موليير (أرباغون).

2.7. أوجه التشابه:

تبدو أوجه الشبه بين بخلاء الجاحظ وبخيل موليير واضحة ومتعددة. و أكثر ما تتجلى في:

- **السخرية**

- تمثل السخرية- كما بينا من قبل- أحد أبرز الصفات الأدبية لكل من الجاحظ وموليير. أما الجاحظ فتسري لديه روح السخرية بهدوء وتنوع، مستمدة من ثقافته الواسعة وروح الاعتزال ونزعة الجدل والمناظرة، فضلا عن مزاجه وتجربته العملية ومعايشته مختلف أصناف البشر وطبقات المجتمع. وتمتاز سخرية الجاحظ بكونها غير مباشرة ولا قاسية، بل تنبث داخل النص ويستنتجها القارئ المنتبه، فتثير في نفسه السخرية من البخلاء وتشيع في نفسه مسرة وبهجة؛ إنها سخرية واقعية تعكس ما يقع في حياة الناس. وإلى هذا يشير الجاحظ "وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصّر عنهما أحد صار الفاضل خطلاً، والتقصير نقصاً"[32].
- أما موليير فتكتسي السخرية لديه أهمية خاصة، ذلك أنها تضطلع بوظيفة جوهرية في صلب العمل المسرحي الكوميدي، سواء في بعض الملاهي الخفيفة الضاحكة farces التي مداره على الإضحاك والإثارة، أو في أعماله الأكثر جديه؛ وفي مسرحية البخيل، استطاع أن يجمع إلى السخرية والإضحاك دقة الوصف والتحليل لسلوك ونفسية البخيل وآثار البخل المدمرة على الحياة الإنسانية.
- **الحوار واعتماد اللغة اليومية:**
- ومن حيث الأسلوب واختيار السجل اللفظي في الأداء، يلاحظ أن كُلاً من الأديبين اعتمد أسلوب الحوار، سواء كان في الملهاة لدى موليير، أو في النثر لدى الجاحظ، الحوار الذي اقترب عند كليهما من اللغة اليومية.
- **المبالغة والطابع الكاريكاتوري في وصف البخيل**
- وذلك من خلال المبالغة في تصوير صفة البخل في النصين، وتلك المبالغة مقصودة فنيا لأنها هي التي تنشئ-بطابعها الكاريكاتوري- لوحات مثيرة عن شخصيات البخلاء، ما تزال تثير الضحك والسخرية، لدى الجمهور، قراء كانوا أو نظارة؛ بما يحقق غرض المؤلف الذي مداره على التسلية والإضحاك من جهة، ونقد البخل والتنفير منه من جهة أخرى.
- **تصوير الأثر الهدام للبخل نفسيا واجتماعيا:**
- نخرج من قراءة "البخلاء" و"البخيل" من ملاحظة أن كلا الكاتبين يشتركان في تصوير الأثر الهدام للبخل على الفرد والجماعة؛ ويمكن تلخيص بعض ملامح ذلك-كما يرسمها المؤلفان- على النحو التالي:

- **على المستوى النفسي للفرد:**

- -العزلة والكآبة وهوس المال الذي ينتهي بما يشبه تدمير الذات (نموذج البخيل أرباغون)
- -الازدواج النفسي والنفاق بمحاولة الجمع بين البخل والتقتير وبين التطلع إلى مقام أهل البذل والجود كما يتجلى هذا المظهر من آثار البخل النفسية في حالات كثيرة في كتاب "البخلاء" حيث يرسم الجاحظ صورة لبعض بخلائه ممن يعاني من البخل والشح الشديد، ومن أمثلة ذلك النموذج التالي الذي أورده الجاحظ في باب "طرف شتى" من كتابه: "وصديق لنا آخر، كنا قد ابتلينا بمؤاكلته، وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام (...) **فكان يتزيد في تكثير الطعام**، وفي إظهار الحرص على أن يؤكل، حتى قال: من رفع يده قبل القوم **غرمناه دينارا** فيرى بعضهم أن غرم دينار أولى، فذلك محتمل في رضا قلبه، وما يرجو من نفع ذلك له!!"[33].

- **على المستوى الاجتماعي:**

- استغلال البخلاء الموسرين للمحرومين والعمال وذوي الحاجة؛ وذلك كما يتضح من نموذج الإقراض واستغلال حاجة المدينين كما نرى مثلا مما يرويه الجاحظ عن أبي سعيد المدائني (...) في تشديده على مدينيه[34].
- صراع الأجيال كما تجسده مسرحية "البخيل" عندما يؤدي بخل أرباغون إلى الصراع اللفظي والفعلي بينه وبين ابنه وابنته؛ بل يصل توصيف موليير لتأثير البخل على الأواصر العائلية لدرجة محاولة اتجار البخيل بابنته من خلال اقتراحه تزويجها من ثري طاعن في السن[35].

خلاصة:

من خلال هذه المقاربة، يمكننا أن نخرج بخلاصة مفادها أن الجاحظ وموليير، هذين الكاتبين الكبيرين، قد استطاعا، إلى حد كبير، أن يصورا نماذج واقعية، لظاهرة البخل، حينما تتحول من سلوك فردي شاذ إلى ظاهرة تنتشر في المجتمع، وتأخذ آثارها تصيب الفرد والمجتمع معا بأدهى العواقب، سواء في

العقول والأنفس أو في التصرفات والمعاملات العائلية والاجتماعية. ولعل مزية بخلاء الجاحظ وبخيل موليير إنما تكمن في إفلاحهما في إمتاع القارئ والناظر- بالسخرية وإثارة الضحك إزاء تصرفات وأحاديث مرضى البخل من المكتنزين والمقترين والمكدين، بقدر نجاحهما أيضا في تصوير النفسيات المريضة والتصرفات الغريبة للبخلاء وتنفير المجتمع منها تصورا وسلوكا.

وعلى الرغم من التباعد الزماني والمكاني بين الرجلين والمؤلفين، فإن صفات وخصائص فنية وأدبية كثيرة تجمعهما؛ وجوانب أخرى عديدة تفرق بينهما، إلا خصلتي الإبداع والتشويق وروح المرح والإضحاك تربطهما بميثاق غليظ، لا يكاد القارئ لذاك أو المشاهد – أو حتى القارئ لهذا- يجد عنه انفكاكا.

- **الهوامش:**

[1]-Henda Dhaoudi, Synergies *Monde Arabe n° 6- 2009, p.18.*

[2]-انظر ترجمته مثلا في ياقوت الحموي، معجم الأدباء، المجلد 16/ ص74 وما بعدها.

[3]- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، 1985، ص ص 196، وانظر عرضا بعض ملامح نشأة الجاحظ وثقافته وصناعته الأدبية في: الدكتور شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ص 154 وما بعدها.

[4]- أشار إلى ذلك الدكتور طه الحاجري في مقدمة تحقيه لكتاب البخلاء، ص .....

[5] الجاحظ، البخلاء، تحقيق الدكتور طه الحاجري، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة.

[6] موليير، البخيل، الفصل الأول.

[7]- كتاب البخلاء، ص 133.

[8]- البخلاء، ص 5-6.

[9]- البخلاء، ص 69.

[10]- موليير، موسوعة وكيبيديا الإلكترونية.

[11]- انظر مثلا: البخيل، الفصل 3، المشهد 1.

[12]- الدكتور طه الحاجري، مقدمة تحقيق كتاب البخلاء للجاحظ، الطبعة الخامسة، دار المعارف، ص 48.

[13]- كتاب البخلاء، ص 79.

[14]- البخلاء، ص 1-2.

[15]- البخلاء، ص 2.

[16]-Dichy Joseph, 1993. « Des paralogismes qui font rire : les *Avares* de DJâhiz », in Christian Plantin (éd.), *Lieux communs, topoï, stéréotypes, clichés*, Paris, Kimé, p. 195(chap. 19).

[17]- البخلاء، ص 139.

[18]-البخلاء، ص 2.

[19]- البخلاء، ص 3.
[20]- راجع مادة بخيل (miser) في معجم أكسفورد الإنجليزي أو مادة "avarice" في معجم "لاروس" الفرنسي، مثلا، بينما تعرفه كتب الأخلاق بأنه منع ما يجب أو منع المسترفد مع القدرة على رفده كما يقول يحي بن عدي في كتابه "تهذيب الأخلاق"، تحقيق ودراسة د/ ناجي التكريتي، بيروت-باريس، 1978، ص 98.
[21]- انظر مثلا: يحي بن، تهذيب الأخلاق، تحقيق ودراسة الدكتور/ ناجي التكريتي، مطابع عويدات، بيروت-باريس، 1978، في حديثه عن فضيلة السخاء، ص90، ثم عن رذيلة البخل، ص 98.
[22]- البخلاء، ص 2.
[23]- البخيل، الفصل الرابع، المشهد 5.
[24]- البخيل، الفصل 4، المشهد 7.
[25]- البخيل، الفصل الأول.
[26] -Autour de *L'Avare*d'après Molière, adapté et mis en scène par Attilio Maggiulli (et autres), p. 13.
[27] -L'argent immoral, une étude de Jean-Luc, p.3
[28]- المرجع نفسه، ص 3.
[29]- البخلاء، ص18.
[30]- انظر مناقشة الدكتور طه الحاجري في مقدمة تحقيقه لكتاب البخلاء لهذه المسألة والتشابه بين أسلوب الجاحظ و"معلمي البيان" اليونان، م س، ص 23-25.
[31]- L'argent immoral, Jean Luc، م س، ص 2.
[32]- البخلاء، ص 7.
[33]- كتاب البخلاء، ص 55.
[34]- كتاب البخلاء، ص 138-139.
[35]- البخيل، نهاية الفصل الأول.

قامة المراجع:

- **بالعربية:**

1- الجاحظ، البخلاء، تحقيق الدكتور طه الحاجري، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة
2- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، 1985، بيروت.
3- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة.
4- طه الحاجري، مقدمة تحقيق كتاب البخلاء للجاحظ، الطبعة الخامسة، دار المعارف.
5- يحي بن عدي في كتابه "تهذيب الأخلاق"، تحقيق ودراسة د/ ناجي التكريتي، بيروت-باريس، 1978
6- موسوعة وكيبيديا الإلكترونية، موليير.
7- ياقوت الحموي، معجم الأدباء.

- **باللغتين الفرنسية والانجليزية:**

1- L'argent immoral, une étude de Jean-Luc

2- L'Avare de Molière
3- Autour de *L'Avare*d'après Molière adapté et mis en scène par Attilio Maggiulliavec : Arnaud Dupont, Chloé Genet et Caroline Riche
4- Andreas Syz, exposé sur l'Avare de Molière, 11 janvier 1997
5- Dichy Joseph, 1993. « Des paralogismes qui font rire : les *Avares* de DJâhiz », in Christian Plantin (éd.), *Lieux communs, topoï, stéréotypes, clichés*, Paris, Kimé
6- Encyclopédia Universalis, Molière
7- Henda Dhaoudi, Synergies *Monde Arabe n° 6- 2009*
8- Larousse Encyclopédique, Molière
9- Oxford Dictionary
10- Dictionnaire Larousse